الخبير

حذيفة بن اليمان

رضي الله عنه

من عرف نفوس البشر
عرف ما لم يعرفه أحد

« إلى أين يا حذيفة ؟ ».

انتبه حذيفة فجأة..من أثر صوت صدر من خلفه هو ووالده (حسيل بن جابر)، وهما يسيران في صحراء الجزيرة العربية في سفر خارج المدينة، قبل ساعات من غزوة بدر.. وأخذ صاحب الصوت يقترب منه وهو يتابع:

- إذن صحيح ما سمعناه ؟

قال حذيفة وهو يحاول أن يخفي ارتباكه:

- أي شيء سمعته يا رجل ؟ نحن ذاهبان إلى المدينة..إلى أهلنا هناك.

نظر إليه أبو جهل وحوله أصحابه وهو ينظر إليه نظرة ثاقبة:

- بل تذهبان إلى محمد وأصحابه يا حذيفة.. ألم تصبحا مسلمين ؟

رد حذيفة في غضب:

- نذهب إلى من نذهب إليه.. لا شأن لكم بنا.

قال أبو جهل مهددا:

- لن تذهبا إلى محمد.. نحن نأسركما ونمنعكما.

ثم نظر إلى حسيل بخبث وهو يتابع:

- أهل المقتول لا زالوا يبحثون عنك يا حسيل..وأنت الآن في أيدينا.

وتابع مستطردا:

- إلا إذا عاهدتمانا.

نظر حذيفة وأبوه كل منهما إلى الآخر، وقد بدا على وجهيهما الغموض، ثم نطق حذيفة مستفهما في ضيق:

- نعاهدكم؟ نعاهدكم على أي شيء. .؟!

- إذا قاتلنا محمدا..فلا تقاتلا معه ضدنا.

هتف الأب وهو يمسك بيد حذيفة قبل أن يهم بالكلام:

- اتفقنا..لا نحارب معه إذا حاربتموه.

ترك جمع المشركين حذيفة وأباه يواصلون السير بعد عقد الاتفاق فيما بينهم، بينما ظهر الضيق على حذيفة وهو يحدث والده قائلا:

– ما هذا الذي قلته يا أبي.. أنذهب إلى رسول الله ﷺ، ثم نقول له: عفوا، فبعد أن أسلمنا وعاهدناك على حمايتك ونصرتك، لن نستطيع أن نحارب معك ؟!

ثم تابع:

– لقد تسرعت يا أبي..تسرعت.

قال الأب بصوت خفيض يدعوالى التفكير:

– لو لم نفعل ذلك لما تركونا.. أردت أن أمرر الموقف ثم نعرض الأمر بتفاصيله على الرسول ﷺ، وليحكم بعدها بما يشاء.

تنهد حذيفة وهو ينظر إلى أبيه قائلا:

– وليكن.. فلنعرض الأمر على رسول الله ﷺ.

وواصل حذيفة وأبوه السير إلى أن وصلا إلى المدينة، ليكونا بين يدي رسول الله ﷺ، ثم يعرضان عليه الأمر وينتظران أمره..

وكم كان الرسول ﷺ عظيما عندما أمرهما بالوفاء للمشركين بالوعد، وعدم مشاركتهما في حربه مع الكفار قائلا:

«نفي بعهدهم، ونستعين بالله عليهم ».

يا لعظمة الإسلام..

ما الذي يمنع مسلمين من أن يتذوقا حلاوة أول جهاد في سبيل الله، ولا ينالا شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ ؟

ما الذي يجعل مسلمين يعنيان بعهد لمشركين أعداء لهما وللرسول ﷺ وللدعوة، في موقف كانوا مكرهين فيه على أخذ العهد..

الذي دفعهم إلى ذلك كلمة واحدة..

الأخلاق..

رسالة الإسلام السامية، التي بعث الرسول ﷺ للبشرية من أجلها..أليس هوالقائل:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؟

ولقد كان الوفاء بالوعد، أحد مكارم الأخلاق التي تتمتع بها الجاهلية..أفيأتي الرسول ﷺ ليهدمها ؟!

لا..حتى وإن كانت من أجل الجهاد ضد أعداء الله.

بالتأكيد حزن حذيفة وأبوه لأنهما لم يشاركا في غزوة بدر.. درة الجهاد في سبيل الله.

لكنهما – وبالتأكيد- كانا يعلمان تمام العلم، أن الثمن كان تعليم الأجيال تلوالأجيال، أن

المبادئ أهم وأبقى من أي شيء، وأن الرسالة التي لا يخدشها شيء.. لهي أبقى وأنفع للناس ولو مرت آلاف السنين.

لم يشاركا في بدر..لكنهما أدركا الجهاد في أحد..

وكم كان هذا اليوم شديدا على حذيفة..

ليس لهزيمة المسلمين بعد تفوقهم الكبير على المشركين فحسب..

وليس للأذى الذي لحق بالرسول ﷺ، واستشهاد سبعين من الصحابة فحسب..

ولكن أيضا.. لأن هذا اليوم، قد شهد مصرع أبيه أمام عينيه، والسيوف تتساقط عليه.. ويا للأسف..

بأيد مسلمة !!

نعم بأيد مسلمة !!

فلقد انهال المسلمون بالسيوف على أبيه خطأ، ظنا منهم أنه من المشركين لكونه كان ملثما، وما إن لمح حذيفة المشهد، حتى أخذ يصرخ في عنف:

- توقفوا..إنه أبي..أبي.

لكن نداء حذيفة كان قد تأخر قليلا، وعندما توقفت السيوف.. وسط ذهول من ضربوا أبا حذيفة، كانت الروح قد صعدت إلى بارئها.

وكم كان الموقف عصيبا على الجميع..

ألا يكفي ما فيه المسلمون من كرب وهم ومصيبة وبلاء.. فيقتل أحدهم عن طريق الخطأ؟!

كان حذيفة حزينا حزن ابن على وفاة أب أحبه، وحزن صديق على صديق قطعا معا طريقهما إلى الله..

ولكنه رغم تأثره.. كان يقدر الموقف، ويلتمس العذر لقاتلي أبيه.

وعندما علم الرسول ﷺ بالموقف..أمر بأخذ الدية..

فما كان من حذيفة، إلا أن أخذها ووزعها على فقراء المسلمين..

عندها.. نظر الرسول ﷺ إلى حذيفة، فوجده رجلا صابرا محتسبا، نقي النفس عاقلا حكيما..

فازداد قدره عنده..واعتزازه به..

وكان موقفه معه يوم الخندق لا ينسى..

فعلى مدار ما يقرب من شهر .. وأحزاب الكفر متجمعة حول المسلمين، تضرب حصارا شديدا عليهم، لقد اشتد الجوع وزاد الخوف وزلزل المسلمون، خصوصا بعد موقف بني قريظة ونقضهم العهد مع الرسول ﷺ.

إلا أن أمرا ما حدث.. استطاع أن يبث الأمل في نفوس المسلمين ليضع أقدامهم على أول طريق النصر.

فلقد خطط الرسول ﷺ لعملية خداع ماهرة، قام بها (نعيم بن مسعود)، بعد أن أبلغ الرسول ﷺ بإسلامه دون أن يعلم قومه -قبيلة أشجع- وهى إحدى القبائل التى كانت تحاصر الخندق، واستغل الرسول ﷺ بذكائه الحاد هذا الموقف ليفك شفرة الحصار، بعد أن وصل الأمر إلى طريق مسدود، ونجح نعيم بن مسعود ببراعة في أن يوقع بين قريش وبني قريظة، ويفض التحالف بينهما.

وأراد الرسول ﷺ بعدها أن يتابع تطورات الموقف، بعدما نجح نعيم بن مسعود في الوقيعة بين اليهود وقريش.. وكان الأمر يتطلب عملية تجسس غاية في الخطورة، وتتطلب شخصا ذا مهارات فذة ونادرة.

لقد أراد الرسول ﷺ أن يتسلل أحد المسلمين بين صفوف قريش، ويسمع ما يدور، وينقل الأخبار للرسول ﷺ...

مهمة في غاية الخطورة جاءت في وقت عصيب على المسلمين، فلقد كانت الليلة مظلمة ظلاما رهيبا، وكانت العواصف من شدتها تصدر أصواتا مرعبة، وكأنها تريد أن تقتلع الجبال وقلوب البشر..

وفي هذا الموقف العصيب.. يقف الرسول ﷺ ويطلب من المسلمين ما لا ينتظره أحد..

ينادي الرسول ﷺ:

«من يذهب فيأتيني بخبر القوم؟».

إن الرسول ﷺ يريد رجلا يذهب إلى معسكر الأعداء..

سمع الجميع نداء الرسول ﷺ.. سمعوه جيدا.. لكن أحدا لم يجب !!

أهذه الدرجة كان الموقف مرعبا ؟!!

ربما لن نستطيع أن نصف تلك الليلة بكلمات أكثر من أن نقول: إن بين من سمعوا نداء الرسول ﷺ..«أبا بكر الصديق» و «عمر بن الخطاب »و«علي بن أبي طالب» والعشرات من خيرة الصحابة..

أهناك كلمات أكثر من ذلك ؟

بل إن الرسول ﷺ كرر النداء بوعد صريح، يزيل الخوف والرهبة ويدفع إلى تلبية طلب الرسول ﷺ، وينزل الشرف بصاحبه الشجاع حيث قال:

«من يذهب فيأتيني بخبر القوم، وهو رفيقي في الجنة ؟ ».

ويأتي الرد مفاجأة للجميع.. وللرسول ﷺ نفسه..

الصمت..

ويحاول الرسول ﷺ مرة أخرى..

«من يذهب فيأتيني بخبر القوم، وأضمن له العودة، وأضمن له الجنة ؟».

من غير المعقول ألا يرد أحد..من غير المنطقي أن لا يرفع الجميع أيديهم ليفوزوا بالجنة، كما وعد الرسول ﷺ على مرأى ومسمع من الجميع.

لكن غير المعقول وغير المنطقي حدث فعلا..ولم يرد أحد!!

ماذا يجري ؟! ماذا يحدث؟! أوصل الأمر إلى هذا الحد؟!

وهنا يلجأ القائد العسكري إلى القرار الأخير والحاسم والاختيار بالأمر..

ولكن من يختار..

إنه يريد رجلا ذا شجاعة نادرة، وبديهة سريعة واتزان وروية، غير متهور خفيف الحركة، يستطيع أن يضبط أعصابه، يستطيع الخداع والمكر بصورة لا تكشفه..

يا ترى.. من هذا الرجل ؟

«قم يا حذيفة».

قالها النبي آمرا... أمر قائد عسكري لا يرد..

سمع حذيفة اسمه ينادي عليه الرسول ﷺ، ففوجئ وارتبك..إلا أنه لم يجد مفرا من تنفيذ الأمر..

ولم يجد حذيفة مفرا من أن ينهض ذاهبا للرسول ﷺ، ليشرح له الرسول ﷺ طبيعة المهمة، والتي أخذ يتلقى التعليمات الخاصة بشأنها بإنصات وتركيز.

وكانت تعليماته ﷺ لحذيفة:

«ألا تحدث فيهم أمرا»

لا تقم بأي فعل فيهم يا حذيفة، مهما أتيحت لك من فرص.

وبدأ حذيفة المهمة، والذي ما إن ترك المكان، حتى أبدل الله البرودة الشديدة إلى دفء غريب يسري في جسده، وكأن الله أراد أن يلقي في نفسه الطمأنينة قبل أن يخترق معسكر الأعداء وحده.

ويعبر حذيفة الخندق، وفي خفة وهدوء، أخذ يتسلل إلى معسكر قريش وحلفائها.. وما إن تمكن حذيفة من الاقتراب من المعسكر، حتى نظر وأمعن النظر، وكأنه لا يصدق عينيه..

إنه هو..نعم هو..

أبو سفيان على فرسه.

ولثوان تملكته الفكرة.. الفكرة المنطقية في هذا الموقف..

بل.. والمنطقية جدا.

«يا لها من فرصة ذهبية للتخلص من أبي سفيان.. بل يا له من شرف من يقوم بهذا العمل.. حذيفة».

هكذا حدث حذيفة نفسه.. فلقد كان يستطيع برمية قوس واحدة أن يقضي على أبي سفيان، ويخلخل الجيش ويربك حساباته..

ولقد هم حذيفة بالأمر فعلا..لكنه ما لبث أن تراجع بعد أن رن في أذنيه أمر الرسول ﷺ الصريح:

«يا حذيفة.. لا تحدث فيهم أمرا».

وبينما كان حذيفة ينفض الفكرة من رأسه، حتى سمع أبا سفيان وهو يدعوالى اجتماع لقادته، بدا أنه في غاية الخطورة.

فقبل أن يهم أبو سفيان بالكلام.. نبه رجاله إلى الحذر من عيون وجواسيس المسلمين، الذين توقع أن يكونوا قد انتشروا بينهم في هذا الظلام الدامس، وبدهاء متوقع.. طلب من كل الحضور في الاجتماع، أن يسأل كل منهم عن اسم من يجلس بجواره قبل أن يبدأ الكلام..

لحظة واحدة كانت تكفي لكشف أمر حذيفة وفشل الخطة ونهاية حياته بالطبع.

إلا أن سرعة بديهة حذيفة كانت أسرع من هذه اللحظة .. ففي لمح البصر التفت حذيفة ليسأل من يجلس عن يمينه في ثقة وقوة:

من أنت ؟ ليرد الرجل: عمرو بن العاص !!

ولم يدع حذيفة لعقله مهلة أن يفكر في الاسم ودلالته.. ليلتفت بحركة أوتوماتيكية سريعة إلى يساره، ليعيد السؤال بنفس الثقة ونفس القوة قائلا:

من أنت؟ ليرد: معاوية بن أبي سفيان.!!

ألم أقل لكم إن حذيفة كان بينه وبين الموت لحظة..

لقد وقع بين اثنين من دهاة العرب وأكثرهم عداء للإسلام.

لكنه حذيفة.. اختيار الرسول ﷺ الناجح.

نجح حذيفة في أن يمر من الاختبار الأول، وبدأ الاجتماع.. ليسمع حذيفة كلاما لا يكاد يصدق نفسه وهو يسمعه..

لقد أمر أبو سفيان بالانسحاب..

أخيرا انفرج الكرب، وأتى نصر الله بعد قرابة شهر من المعاناة والتوتر والخيانة والجوع والألم والخوف...

ولم يكن صعبا على جاسوس ماهر كحذيفة أن يعود بنفس الخفة والرشاقة إلى الرسول ﷺ

ليزف البشرى إليه وللمسلمين، وليرتفع مقام حذيفة عند النبي ﷺ أعلى وأعلى ، ويؤكد حذيفة أنه صنف خاص من الرجال ..

* * *

وهكذا رآه الرسول ﷺ بالفعل..صنف خاص من الرجال؛ لذا.. رأى أن يختصه بما لم يختص به أحدا غيره.

لقد قرر الرسول ﷺ أن يخص حذيفة بسر ائتمنه عليه دون غيره إلى يوم القيامة..

ولقد كان السر خطيرا بالفعل..

وخطيرا جدا.

أخبر الرسول ﷺ حذيفة بأسماء المنافقين.. وطلب منه الرسول ﷺ ألا يخبر أحدا بأسمائهم..أي أحد.. مهما كان الأمر..

يا لها من ثقة غالية يستحقها حذيفة..

لقد امتاز حذيفة بمزية تفرد بها حتى مماته، وأصبح بها محط أنظار كل الخلفاء الراشدين في حياته، حتى عمر بن الخطاب الذكى اللماح، المدقق بشدة في اختيار الأشخاص الذين يختصهم بمواقع المسئولية، كان يستشير حذيفة كثيرا في حكمه على أشخاص بعينهم، حتى إنه سأله يوما: هل هناك أحد من مسئوليه منافق، فأجابه حذيفة: نعم.

قال له عمر وقد بدا عليه القلق بوضوح:

من هو.. سمه لي يا حذيفة.

ورغم خطورة الأمر.. إلا أن حذيفة لم يخبر عمرا باسمه، وألح عمر في الطلب، ليصر حذيفة على كتمان سر ائتمنه عليه رسول الله ﷺ ، حتى ولو بعد عشرين عاما من وفاته..

إلا أن عمر بن الخطاب لم يستسلم، وأخذ يفكر وهو يقلب الشخصيات والمواقف في رأسه، حتى هداه الله إليه واتخذ قرارا بعزله.

ترى ما قيمة شخص يعرف سرا لا يعرفه أحد على وجه الأرض..

ترى ما قيمة شخص يستطيع أن يحدد بينه وبين نفسه: هل هذا الرجل منافق أم لا ؟..

لم يكن عمر بن الخطاب يذهب إلى جنازة أي من المسلمين توفي في المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، إلا بعد أن يسأل: أذهب حذيفة إلى الجنازة ؟ فإن قالوا: نعم. ذهب. وإن قالوا: لم يذهب. لا يذهب.

إن حضور حذيفة الجنازة من عدمه دليل على نفاق من مات من عدمه.. فلقد توصل عمر إلى هذا مستدلا بحكم شرعي وهو أنه لا تجوز الصلاة على منافق.

ولقد بلغ تعلق عمر بسر حذيفة إلى أنه سأله يوما سؤالا عجيبا غريبا مدهشا لحذيفة نفسه قائلا

في قلق:

- أستحلفك بالله يا حذيفة..هل سماني رسول الله ﷺ من المنافقين ؟

اندهش حذيفة لسؤال عمر، ولم يملك إلا أن يرد عليه وهو يبتسم:

- ما تقول يا عمر؟!..دعك من هذا.

ويلح عمر مكررا والقلق في ازدياد:

- أستحلفك بالله يا حذيفة.. أسماني رسول الله ﷺ من المنافقين ؟

قال حذيفة مطمئنا عمر: لا يا عمر.

أخيرا اطمأن عمر بن الخطاب.. أنه ليس من المنافقين !!

يا لله..عمر بن الخطاب يشك في نفسه..أتراها دلالة على إيمان عمر..

أم دلالة على نقص إيماننا..

لم تكن ثقة عمر والصحابة في حذيفة من فراغ، فلقد أثبت حذيفة طيلة مسيرته معهم أنه خبير بالنفوس، وأنه على دراية بالخداع والمكر، وعلى علم بالشر والأشرار..

كان أول من لمح تلك القدرة في حذيفة هوالرسول ﷺ.. وكان هذا أحد الأسباب القوية التي جعلت الرسول ﷺ يختاره يوما، ليقوم بمهمة التجسس الخطيرة في غزوة الأحزاب..

ولقد رأى الرسول ﷺ ذلك في حذيفة؛ لأن حذيفة- وعلى خلاف الصحابة - كان يسأل النبى ﷺ كثيرا عن الشر ليدرسه ويتقيه، كان يريد أن يدرس نفسية الأشرار، فيحمى نفسه ويحمى الإسلام منهم.. ولقد ظهر الأمر في حذيفة بعد ذلك كموهبة متفردة، يستطيع بها أن يحلل النفوس ويحكم على الأشخاص.

- يقول حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى..قلت: يا رسول الله، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»..قلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن»..قلت: وما دخنه..؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي.. ويهتدون بغير هديي، وتعرف منهم وتنكر»..قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر..؟

قال: «نعم! دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»..قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك..؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»..

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام..؟ قال: «تعتزل تلك الفرق كلها، ولوأن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»..!!

وكان حذيفة على موعد مع التفوق العسكري والفتوح الإسلامية...

فلقد كان ثالث ثلاثة، أو خامس خمسة كانوا أصحاب السبق العظيم في فتوح العراق جميعها..!وفي

معركة نهاوند العظمى،.. احتشد الفرس في مائة وخمسين ألف مقاتل .. اختار عمر لقيادة الجيوش المسلمة النعمان بن مقرن ثم كتب إلى حذيفة أن يسير إليه على رأس جيش من الكوفة..وأرسل عمر إلى المقاتلين كتابه يقول:

« إذا اجتمع المسلمون فليكن على كل جيش أميره.. وليكن أمير الجيوش جميعها النعمان بن مقرن.. فإذا استشهد النعمان، فليأخذ الراية حذيفة، فإذا استشهد فجرير بن عبد الله».

وهكذا مضى أمير المؤمنين يختار قواد المعركة حتى سمى منهم سبعا...والتقى الجيشان..الفرس في مائة وخمسين ألفا..والمسلمون في ثلاثين ألفا لا غير...وينشب قتال يفوق كل تصور ونظير، ودارت معركة من أشد معارك التاريخ فدائية وعنفا..وسقط قائد المسلمين قتيلا، سقط النعمان بن مقرن، وقبل أن تهوي الراية المسلمة إلى الأرض كان القائد الجديد قد تسلمها بيمينه، وساق بها رياح النصر في استبسال عظيم... ولم يكن هذا القائد سوى حذيفة بن اليمان...حمل الراية من فوره، وأوصى بألا يذاع نبأ موت النعمان حتى تنجلى المعركة.. ودعا نعيم بن مقرن فجعله مكان أخيه النعمان تكريما له..لقد أنجز المهمة في لحظات والقتال يدور.. ثم انثنى كالإعصار المدمر على صفوف الفرس صائحا:«الله أكبر صدق وعده!! الله أكبر نصر جنده!!»ثم لوى زمام فرسه صوب المقاتلين في جيوشه ونادى: يا أتباع محمد.. هاهى ذي جنان الله تتهيأ لاستقبالكم فلا تطيلوا عليها الانتظار. هيا يا رجال بدر..تقدموا يا أبطال الخندق وأحد وتبوك..لقد احتفظ حذيفة بكل حماسة المعركة وأشواقها، إن لم يكن قد زاد منها وفيها..وانتهى القتال بهزيمة ساحقة للفرس.. هزيمة لا نكاد نجد لها نظيرا..!!

فلقد قتل في هذه المعركة ما يزيد على ثمانين ألفا من الفرس.

ويستقر المسلمون في المدائن، فيصابون بالأمراض من مناخ المدينة القاسى حتى يشعر سعد بن أبي وقاص بالخطر على حياة المسلمين، فيكتب لعمر يخبره بالأمر، فيشير عليه عمر بن الخطاب بالبحث عن مكان أفضل، أكثر أمانا وصحة للمسلمين.. وفكر سعد في الشخص الذي يقوم بمهمة البحث عن المكان الجديد..فكان ذلك الشخص هو حذيفة بن اليمان.

حذيفة مرة أخرى.

لقد عود حذيفة أصحابه أنه إذا وقع عليه الاختيار في أمر فلن يخيب رجائهم.. وقد كان.. فلقد اختار حذيفة مدينة الكوفة ، وأشار على سعد بها فوافق ونزل المسلمون بها، لتتحسن صحتهم وترتد عافيتهم.. وبعد أن كانت صحراء مرملة، قام المسلمون بتعميرها لتصبح مدينة عامرة حديثة جميلة.

هكذا المسلمون.. أهل دنيا وأهل آخرة..

وهكذا كان يقول حذيفة:

«ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة.. ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين

يأخذون من هذه ومن هذه»...

وعندما ولاه عمر حاكما على المدائن..أذهل أهل الفرس المنعمين المترفين.. فلقد خرج أهل المدائن أفواجا يستقبلون واليهم الجديد، الذي اختاره لهم أمير المؤمنين عمر ﷺ..خرجوا تسبقهم أشواقهم إلى رؤية هذا الصحابي الجليل الذي سمعوا الكثير عن ورعه وتقاه.. وسمعوا أكثر عن بلائه العظيم في فتوحات العراق..وإذ هم ينتظرون الموكب الوافد، أبصروا أمامهم رجلا مضيئا، يركب على حمار وقد أسدل الرجل ساقيه، وأمسك رغيفا وملحا بكلتا يديه ، وهو يأكل ويمضغ طعامه..!

وحين رآهم يحدقون فيه كأنهم ينتظرون منه حديثا، ألقى على وجوههم نظرة فاحصة ثم قال: «إياكم ومواقف الفتن»..!!

قالوا: وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله..!!

قال: «أبواب الأمراء»..يدخل أحدكم على الوالي أوالأمير، فيصدقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه»..!

يا لها من بداية عجيبة..أهذا أول تصريح يدلي به حاكم المدينة لأهلها.. ما هذا الإيمان، وهذا الإخلاص، وهذا الزهد في الدنيا وهي بين يديه ؟!..إنه يحذر أهل المدينة ألا ينافقوه ويكذبوا عليه لإرضائه فيضيع ويضيعون..

إنه يقول لهم: لا تصفقوا لي ولا تألهوني وتتغافلوا عن أخطائي إذا أخطأت...

أعرفتم لماذا ساد المسلمون العالم في عهد حذيفة وعمر ؟ ولماذا تزيلنا العالم الآن..

ببساطة..هم كانوا يتكلمون بالإسلام ويطبقونه..

ونحن نتكلم بالإسلام ولا نطبقه..

حقا يا حذيفة.. إنك لعدوالنفاق والمنافقين.

إنه لا زال يكتم سر الرسول ﷺ.. ولازال يعي معنى النفاق جيدا، فيدرسه ويعلمه للرعية وللأمة كلها..

وعندما سأله عمر عن معنى النفاق، قال له رأيا سديدا بسيطا عميقا مرعبا مفجعا لاذعا:

«النفاق..أن تتكلم بالإسلام ولا تعمل به»

أليس هذا التعريف مرعبا لك؟ولنا؟

لم يكن حذيفة على علم بأسماء المنافقين فقط.. بل كان على علم بالفتن أيضا..الفتن كلها.. وكان هذا سرا جديدا استودعه الرسول ﷺ إياه..

يقول حذيفة:

«ما من فتنة كائنة إلى يوم القيامة إلا وأنا على علم بها».

سر جديد غاية في الخطورة.

وفي مجلس تاريخي جمع «عمر» وحذيفة وعددا من الصحابة، قال عمر لحذيفة:

- يا حذيفة..حدثني عن الفتن.

فقال حذيفة:

وما لك أنت ومال الفتن يا أمير المؤمنين..إن بينك وبين الفتنة بابا مسدودا يا عمر، لا يفتح حتى تموت. فقال عمر: فإن أنا مت يا حذيفة؟ قال: لا يعود مسدودا. فقال عمر: يا حذيفة، أيفتح الباب أم يكسر ؟ قال حذيفة: بل يكسر. فقال عمر: إذن لا يعود إلى مكانه أبدا.قال حذيفة: تموت فيفتح باب الفتن فلا يسد إلى يوم القيامة.

ويخرج عمر حزينا كأشد ما يكون الحزن، فيسأل الصحابة حذيفة، يريدون فهم ما جرى بينهما.. فيقول حذيفة:

- الباب..عمر بن الخطاب..فإذا مات عمر.. فانتظروا الفتن.

ويكسر الباب في عهد علي بن أبي طالب، وتبدأ كارثة الفتنة الكبرى بينه وبين معاوية بن أبي سفيان..لينسحب حذيفة من الحياة بعد أربعين يوما من خلافة علي ﷺ، ويرتحل إلى أرض جديدة..بعيدة.

ففى أحد أيام العام الهجري السادس والثلاثين.. وبينما هو يتهيأ للرحلة الأخيرة دخل عليه بعض أصحابه، فسألهم:أجئتم معكم بأكفان..؟ قالوا: نعم..قال: أرونيها..فلما رآها، وجدها جديدة فارهة..فارتسمت على شفتيه آخر بسماته الساخرة، وقال لهم: «ما هذا لي بكفن.. إنما يكفينى لفافتان بيضاوان ليس معهما قميص.. فإني لن أترك في القبر إلا قليلا، حتى أبدل خيرا منهما... أو شرا منهما»..!!

وتمتم بكلمات، ألقى الجالسون أسماعهم فسمعوها: «مرحبا بالموت..حبيب جاء على شوق..لا أفلح من ندم»..

رحمك الله يا حذيفة..

أنبأتنا بالفتن..وتركتها لنا..

ادع لنا أن نصبر عليها حتى نلقى الله..

ونلقاك.

دروس وتحليل

١- الوفاء بالوعد ولو لكافر ولو في وقت الحرب (الرسول يأمر حذيفة وحسيل بالوفاء بوعدهما مع المشركين، بعدم اشتراكهما في معركة بدر).

مهما قيل في الوفاء بالوعد، فلن تجد مثالا أقوى وأفضل من وفاء حذيفة وحسيل لعهدهما مع المشركين قبيل غزوة بدر، ولقد كان ذلك بأمر الرسول ﷺ، وأعتقد أنه أمر أدهش حذيفة وحسيل، وربما أدهشنا نحن أيضا، فالرجلان لجآ إلى ذلك الوعد كحيلة للهروب من أسر المشركين، وكان توقعهما أن يوافقهما الرسول ﷺ على اعتبار أنها حيلة شبيهة بحيلة حربية لا تلزمهما بالوفاء بوعدهما وعدم الاشتراك في غزوة بدر، ولكن جاء أمر الرسول ﷺ ليقرر أمرين:

الأول: أن الوفاء بالوعد قيمة عظيمة يجب الحفاظ عليها ولو في أشد الظروف، فالوفاء بالوعد صدق ورجولة، وعدم الوفاء به غدر وخيانة وكذب ونفاق..وكان أشد ما يحافظ عليه الرسول ﷺ هوالركن الأخلاقي عند المسلمين، مهما كانت التضحيات في سبيل ذلك.

الثاني: أن الوفاء بالوعد فرض على المسلمين ولوأخذ لكافر، ولا يكون الوعد لمسيحى أو يهودي أو ملحد، ذريعة لنقض العهد أبدا، فالأخلاق لا تتجزأ ورسالة الإسلام رسالة أخلاقية قبل كل شيء. وهى رسالة لمسلمى هذا العصر، الذين يخلفون الوعد لأتفه الأسباب، كالكسل ومشاهدة التليفزيون والنوم... إلخ إن الوعد مسئولية لا يوفيها إلا الرجال.

٢- حسن تقدير المواقف والظروف.. والتسامح والرحمة رغم شدة الإيذاء..والصبر والإيمان يحتاجان دائما إلى دليل (حذيفة يتصدق بدية والده المقتول خطا من الصحابة في أحد).

تظهر حكمة الإنسان وعقله ساعة الشدة، وعند المصيبة ووقت الغضب.. والغضب والمصيبة، أحدهما كفيل بأن يصيب الواحد منا بالعصبية والتذمر، ولقد اجتمع الاثنان على حذيفة، فمن يصبر أو يتحمل أن يقتل أبوه بطريق الخطأ عن طريق أصدقائه ؟! وكيف يقدر على مسامحتهم ؟! وإن سامحهم.. فكيف يستطيع معاشرتهم بعد ذلك والنظر إلى وجههم ؟! مع الأخذ في الاعتبار، العلاقة القوية التى كانت بين حذيفة وأبيه، إلا أن حذيفة.. ضرب مثالا نادرا لشخصية نادرة، تغلبت حكمته على غضبه، وتغلب صبره وإيمانه على مصيبته، فسامح من قتلوه، ودعا لهم بالمغفرة، بل إنه لم يكتف بذلك، بل تصدق بالدية التى جمعها له المسلمون بأمر الرسول ﷺ، في إشارة قوية لنموذج تسامحى فريد (قد يكون قد وصل بعض من هذه الدية إلى أحد قاتلي أبيه) ودليل قوي على الصبر والإيمان.

إن هذا الدرس.. يحتاجه بشدة شباب اليوم، السريع الغضب والثورة، القليل الصبر والحكمة، الشحيح التسامح والرحمة.. فليكن حذيفة لنا قدوة.

٣- عندما تنفد الأسباب وتظن أن الأبواب أغلقت، تتنزل إغاثة الله(نعيم بن مسعود يسلم ويذهب للرسول ﷺ يعرض عليه مساعدته في وقت اشتدت فيه الأزمة بعنف على المسلمين).

الله لا يخذل الناجحين المجتهدين المتوكلين عليه أبدا، وفي غزوة الخندق، اجتهد المسلمون وبذلوا كل ما في وسعهم، ولكن الأزمة كانت ما تزال قائمة بحصار المشركين لهم، ووصلت الأزمة إلى مداها بعد نقض بنى قريظة عهدهم مع النبى ﷺ، وتهديدهم للمسلمين من ظهورهم، والرسول ﷺ يحاول بشتى الطرق أن يهدئ المسلمين ويقلل من توترهم، فإذا بالله يبعث إلى الرسول ﷺ بنعيم ابن مسعود مسلما، يعرض خدماته على الرسول ﷺ، وينتهز الرسول ﷺ الفرصة ويستفيد منها أفضل استفادة، فيبعثه بحيلة تفرق اليهود والمشركين، وتكون سببا في انسحاب الأحزاب.

إن النصر ليس من عند البشر، والنجاح ليس ملكا للمجتهدين، وإذا أراد الله نصر أمة أو نجاح شخص لفعل دون جهد من البشر، ولكن الدنيا تركت لأسبابها، والله لا يؤتي النصر ويهب النجاح، إلا لمن أخذ بالأسباب وتوكل على الله، فإذا أتى النصر أوالنجاح يوما، فلنعلم أنه من عند الله، وبأمر الله، وبتوفيق الله.

٤ - لماذا لم يتقدم عمر وأبو بكر وعلى وغيرهم من كبار الصحابة،عندما طلب الرسول ﷺ أن يذهب أحد المسلمين إلى معسكر المشركين (لم يجرؤ أحد من الصحابة على المبادرة بالتقدم للتسلل إلى معسكر المشركين حسب طلب الرسول ﷺ).

لا يمكن أن نتصور أن الدافع وراء ذلك هو خوفهم على حياتهم، وهم الذين باعوا حياتهم لله منذ زمن، وتعرضوا لمواقف عصيبة؛ أثبتوا فيها عمق إيمانهم وصدق إخلاصهم، ولكن التفسير الأقرب للمنطق هو خوفهم من الفشل في المهمة، وتقديرهم أن الفشل فيها قد يسبب تأزما في موقف المسلمين أكثر مما هو متأزم.. ففضلوا عدم المغامرة، في انتظار ما سيسفر عنه قرار الرسول ﷺ.

٥- عدم التشهير بالغير حتى وإن كانوا منافقين (الرسول ﷺ لم يشهر بالمنافقين رغم علمه بأسمائهم).

تعد الفضائح والتشهير بالناس إحدى الواجبات اليومية للصحف العربية، وأصبح حديث الفضائح بين العامة حديثا عاديا ممتعا، إن حديث الفضائح وإن كان صحيحا، ينشر الفساد والرذيلة ويحطم الأخلاق، وإن كان كاذبا يدمر صاحبها نفسيا ويجعله منكسرا مخذولا، حتى وإن ثبتت براءته. ولقد أمر الله بكتمان أسماء المنافقين وعدم إذاعتها، حتى لا يقضى نفسيا على هؤلاء الناس، فيصبحوا في عداد الأموات وهم أحياء بين الناس، فينالوا الأذى في كل نظرة وكل كلمة، وعند إعلان هذه الأسماء تكون قد سدت الأبواب لتوبتهم، ولكن مع كتمانها، فإن باب الرجوع والتوبة يظل مفتوحا.

إن النميمة والخوض في أعراض الناس بالحق أو بالباطل، لهو علامة من علامات تفاهة

المجتمع وانعدام رسالته، وهما صفتان لا تليقان أبدا بمجتمع مسلم.

٦- كتمان السر أمانة تحتاج إلى قدرة على التحكم في النفس ومهارة.. وإفشاء السر خيانة للأمانة.(حذيفة يتكتم على أسماء المنافقين بعد أن استأمنه الرسول ﷺ عليها، لمدة خمسة وعشرين عاما، وحتى وفاته).

كم مرة استأمننا أصدقاؤنا على سر ؟، وكم مرة أفشيناه ؟، وفى كل مرة نفشيه؛ كان يدفعنا شعورنا أن بداخلنا ضغطا هائلا من سر محبوس، لا نرتاح إلا بعد أن نطلق سراحه، ثم نبرر لأنفسنا الخطأ بأن نقول لمن نفشى إليه السر: احذر.. إن هذا سر، وأنا لم أقله إلا لك، وأرجوك ألا تقوله لأحد !! وتستأمن أنت شخصا آخر على سر ائتمنك صديقك عليه، وتطلب منه نفس ما طلب منك، فلا تتعجب بعدها أن يفشى سرك، كما أفشيت أنت سر صاحبك تحت تأثير نفس الضغوط ونفس الظروف. وهكذا دواليك.. إلى أن يصبح السر ملكا للجميع، وربما يعود لصاحبه في إحدى مرات خيانة الأمانة..أمانة السر.

وحذيفة كان يستحق ثقة الرسول ﷺ عندما حافظ على سره لأكثر من خمسة وعشرين عاما، دون أن يصرح أو يلمح باسم واحد ممن ائتمنه الرسول ﷺ على أسمائهم، ورغم تعرضه لضغوط من رئيس الدولة عمر بن الخطاب، وفي أمر خطير يحتاج فيه مشورته ، فلقد كان يريد أن يتأكد من إخلاص من ولاهم حكاما على المسلمين، لكنه لم يستسلم ولم يضعف أمام الضغوط، واستمر على ذلك حتى وفاته، بعد وفاة الرسول ﷺ بخمس وعشرين سنة.

ربما لا يتحمل أحدنا أن يكتم سرا لمدة خمسة وعشرين يوما !!

إن كتمان السر يحتاج إلى قدرة على التحكم في النفس ، وكبح جماحها نحو رغبتها في الشعور بالأهمية لدى الناس؛ انطلاقا من إظهار معرفة ما لا يعرفونه، على حساب من وضعوا فينا ثقتهم وآمنونا على سرهم، كما أنه يحتاج إلى مهارة وذكاء؛حتى لا يحاول من يريد معرفة السر أن يراوغك فيأخذ منك المعلومات دون أن تدري.

خلق جديد ينقصنا.. ونحتاج إلى التدريب عليه.. يعلمه لنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

٧- الصحابة ليسوا رجال عبادة وحرب فقط، بل أصحاب فكر تعمير ونهضة (المسلمون يقومون بعملية تعمير وبناء في الكوفة بعد الفراغ من الجهاد).

يقع ظلم كبير على صحابة رسول الله ﷺ بأنهم أهل عبادة وحرب فقط، وأنهم أبعد ما يكونون عن التفكير في سبل الحياة الكريمة، والحقيقة أن هذا الانطباع قد أخذ عن الصحابة لسببين:

الأول: أن المراحل الأولى من عمر الإسلام، كانت مهمتها بناء الإنسان من الداخل: من بناء العقيدة السليمة، وتقوية الصلة بالله، والتدريب على حسن الخلق، ورقى المعاملات، واضطر المسلمون إلى حروب ثلاثة في غضون ثلاث سنوات، هي بدر وأحد والخندق، فكان طبيعيا أن ترتفع

أسهم هذه الأحداث في كتابات هذه المرحلة، حيث كان للجهاد شأن كبير في الدفاع عن الإسلام واستمراره، فزاد التركيز الإعلامي على هذين المحورين.. محور العبادة ومحور الجهاد.

الثاني: قام التركيز من قبل الدعاة على الجانب التعبدي لحاجة الناس إليه، وعلى الجانب الجهادي لتذكير الأمة بأمجادها في وقت تتعرض فيه أمة الإسلام لهزائم عسكرية متواصلة.

لكن موقف حذيفة عندما طلب منه سعد بن أبي وقاص البحث عن أرض جديدة، ثم قيام المسلمين بتعمير الكوفة، يدل على إيمان الصحابة وتفوقهم في عملية البناء والتعمير، إذا حانت الفرصة لذلك.. إن الإسلام دين جعل الحياة وسيلة للآخرة، وهو دين يريد إسعاد البشرية ورحمتهم، وهو دين نهضة وحضارة.

إننا بفكرتنا هذه عن الإسلام والصحابة.. نظلم الإسلام، ونظلم الصحابة، ونظلم أنفسنا.

٨- نحن في عصر فتن، يجب علينا أن نواجهها لنحمي أنفسنا وأهلنا (حذيفة بن اليمان يخبر عمر بن الخطاب بقدوم الفتن بعد عهده).

حقيقة لابد أن تعترف بها.. نحن في عصر فتن..فتن من كل نوع، وفي كل الاتجاهات، تغلغلت داخل الأسر وطالت كل الأعمار.

العري أصبح فنا..

التدين أصبح تطرفا..

الجهاد أصبح إرهابا..

الرشوة أصبحت هدية..

النفاق أصبح وسيلة الوصول للمناصب..

الكذب أصبح شطارة..

إن علينا أن نتذكر الآية الكريمة في سورة آل عمران..

﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾ [آل عمران:١٨٥].

لقد أصبح الفوز أن نتقي النار..قبل أن يكون الفوز أن ندخل الجنة.

احرص على أن لا تكون سببا في فتنة الآخرين.. وأن تتقي فتن الدنيا بالوسائل الآتية:

١) الصحبة الصالحة.

٢) العبادة.

٣) الصبر.

٤) العمل.

٥) الدعاء.